أضواء على كتاب" كيف نتعامل مع القرآن"؟

لفضيلة الشيخ محمد الغزالى

المسلمون في العصر الحديث يبلغ تعدادهم مليارا ومائة مليون بنسبة 27% وثلاثمائة من سكان العالم، ولكنهم في موازين العالم لا يساوون شيئاً، فالأمم تتداعى عليهم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها فهم مع كثرتهم غثاء كغثاء السيل، وقد نزع الله سبحانه وتعالى من قلوب أعدائهم المهابة منهم وقذف في قلوبهم الوهن والوهن هو "حب الدنيا وكراهية الموت" كما تنبأ بذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منذ أربعة عشر قرناً.

ترى كيف يكون الخروج من هذا المأزق؟

لقد فكر في هذا جماعة من علماء المسلمين المخلصين ومنهم الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالى، وأنشئوا المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بهدف جعل القرآن الكريم المصدر الأول والأهم للمسلم المعاصر ليستقي منه العلم والمعرفة الدقيقة السليمة في نظرته إلى الإنسان والحياة والوجود في الفطرة الإنسانية والاجتماعية في قضايا الفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات والنظم وتأصيل منهج السنة والسيرة النبوية، وسبل الاستفادة منهما في بناء الثقافة والحضارة الإسلامية المعاصرة،

واستيعاب التراث الإسلامي وفهم مناهجه، وتوظيف الصالح الإيجابي منه في بناء ثقافتنا الإسلامية المعاصرة واستفادة العبر والدروس من قضاياه والتنبيه إلى سلبيات ومعرفة الفكر الغربي المعاصر وآليات فهمه ورسائل استخدامه، والاستفادة من الصالح منه والتنبية إلى جذوره ومصادره ونبذ سلبياته وبناء منهج للتعامل مع ذلك كله، كما قال الأستاذ طه العلواني رئيس المعهد.

وفضيلة الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله – يحمل الدعوة منذ أكثر من خمسين عاماً وما أكثر ما كتب عن "هموم داعية" و"الحق المر" و"خلق المسلم"، مؤملاً أن يستجيب المسلمون إلى الإسلام استجابة كاملة حتى يعيدوا إلى الإسلام مجده وإلى المسلمين عزتهم وكرامتهم ويرضي عنهم ربه في الدنيا والآخرة.

وقد أجرى هذه المدارسة المفكر المسلم الذي يحمل أيضاً هموم الدعوة والذي رأس مجلة الأمة القطرية طوال مدة صدورها فكان عطاؤه متميزا وغيرته واضحة ويقول: "لقد انتهت إلى الرسول محمد"، أصول الرسالات السماوية جميعاً وتجمعت لرسالته تجربة النبوة من لدن آدم عليه السلام فحمل القرآن بين دفتيه الشهود التاريخي بما قص به من أخبار الأمم السابقة والشهود الحضاري بما تجسد من سيرة الرسول، وتمثل في خير القرون والشهود المستقبلي بما أصل من قواعد ووضع من معالم وكلف من نظر وتدبر في سنن الله في الأنفس والآفاق التي هي السبيل للتمكين في الأرض والقيام بالشهادة على الناس والقيادة لهم. ثم إن واقع المسلمين

اليوم مع القرآن مؤرق وعلاقته بما يحتمها الهجر والعقول وظهرت فيهم علل الأمم السابقة التي حذر منها القرآن ونبه إليها الرسول. الأمية العقلية: يقول الله تعالى { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} "البقرة 78"، أي لا يعلمون الكتاب إلا تأويلا وترتيلاً، وبذلك تسربت الأمية العقلية وسادت الأمة في حال التقليد والغياب الحضاري والعجز عن تدبر القرآن والتعامل مع الأحداث واتخاذ المواقف، واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق وحسن تسخيرها.

إننا نعيش اليوم الأمية العقلية مع القرآن الكريم والتي تعني ذهاب العلم، على الرغم من تقدم فنون الطباعة ورسائل النشر وتقنيات التسجيل. وقد تكون مشكلة المسلمين اليوم كلها في منهج الفهم الموصل إلى التدبر وكسر الأقفال من على العقول والقلوب وتجديد الاستجابة وتحديد وسيلتها، ليكون في مستوى القرآن ومستوي العصر ويحققوا الشهود الحضاري ويتخلصوا من الحال التي استنكرها القرآن الكريم: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} "محمد 24".

إن المشكلة تكمن في افتقاد وسائل الفهم الصحيح وأدوات التوصيل وكيفية التعامل مع القرآن "أي منهج القرآن والسنة".

والجهود - اليوم - يجب أن تنصب على منهج الفهم وإعادة فحص واختبار المناهج القائمة التي أورثتنا ما نحن عليه والتحرر من تقديس الأبنية الفكرية الاجتهادية التي انحدرت إلينا من موروثات الآباء

والأجداد والمناخ الثقافي الذي يحيط بنا منذ الطفولة ويتسرب إلى عقولنا فيشكلها بطريقة التفاعل الاجتماعي، الأمر الذي أدى إلى انكماش الفكر والرؤية القرآنية في واقع حياتنا وتحول القرآن من مراكز الحضارة وصناعة الحياة إلى الركود والتحنط في بطون التاريخ التي تشكلت في عصور التخلف والتقليد والتي حالت دون إدراك أبعاد النص القرآني والقدرة على تغذيته للزمان والمكان. القرآن الكريم: يتحدث فضيلة الشيخ محمد الغزالى عن العودة إلى القرآن الكريم، والتعبد بتلاوته مع فهم المعنى والعمل به، فالله – سبحانه وتعالى – يقول { كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } "الرعد 30".

فالتلاوة هي أساس التوكل وأساس التوجه وأساس صنع النفس البشرية.

نعم إن القرآن يكلم الرجال ليعيد صياغتهم ويكلم الأحياء ليحقق استجابتهم ويكلم العقلاء ليوجه وعيهم، فيجعل منهم أمة تحمل الرسالة، لأنها فهمت المقصود من إرسال المعجزة الأخيرة وأدركت أبعادها وتدبرت مقاصدها معجزة إنسانية تتصل بإحياء المواهب الإنسانية وتفجير الطاقة البشرية لهذا الخلق وإعداة بناء وتشكيل العقل الإنساني.

لكن المسلمين اليوم لم يفهموا سنن الله الكونية في الأرض حسب منهج التجربة والاستقراء والملاحظة وهو المنطق القرآني الذي عرف من

كتاب ،ومن تطبيقات النبوة ولم يحسنوا الاستفادة من سنن الله تعالى في الحضارات والمجتمعات، وكانت النتيجة أن الأمة سقطت بقضها وقضيتها في قبضة الاستعمار العالمي الذي لا يرحم.

وإذا تأملنا ملامح الظاهرة الثقافية التي عليها المسلمون اليوم فإننا نجد أن هناك خللاً في تلقي القرآن الكريم وخللاً في التعامل مع القرآن وهذا الخلل يعود إلى طريقة التدريس وإلى مناهج التربية والتعليم.

لقد كان إهمال الأخذ بسنة السببية من أهم أسباب التخلف في مجال الدنيا وأعمارها والتواكل في مجال الدين والسلوك ولو أعملنا هذه السنة لاستطعنا أن نحدد موطن الخلل في نظامنا التعليمي، وفي التعامل مع القرآن الكريم منبع ثقافتنا الأصلي الذي أحدث هذه الظواهر – فتغيير التعامل مع القرآن يجب أن يبدأ في إصلاح الخلل في مناهج التلقي ووسائط الوصيل، وإعادة بناء العقل على منهج فكري واضح نستطيع به تغير التعامل مع القرآن الذي يقول: "ومعنى ذلك أن الفساد لن يتلاشى إلا إذا اختفى ما تكسبه الأيدي من إثم، إن "سيرجينز" عندما كان يقرأ معلوماته عن الفلك على بعض المسلمين ويرتعش من حدة العاطفة التي ملكته وهو يحدث عن الله وعن الإيمان بعظمته لما رأى من عظمة المجرات التي درسها – كان أقرب إلى الإسلام من كثير منا عندما درس السماء.

إن غيرنا يرتاد الفضاء ويتخذ من ذلك منارات وعلامات لكي يسخر الحضارات له إما نحن فوقوف لابد من إحسان التعامل مع القرآن.

ولاحظ شيخنا أن المشكلة الفكرية اليوم هي أننا تخلفنا أيضاً لمواردنا الثقافية، وبذلك نلجأ إلى لون من التفسير المتخلف أيضاً كنوع من التسويق للوقاع الذي نحن عليه.

قضية الحديد:

آية الحديد الظاهر فيها أن الله تعالى يريد أن يعلم المسلمين من ينصره بالغيب - الدفاع واضح من استخدام الحديد - لابد من نصرة الله بالغيب فاستخدام الحديد في صناعة السيوف أو الرماح قديماً - لكن الحديد اليوم أساس صناعة الدبابات والسفن والمدافع والصناعات الحربية الهائلة، وما ينصر الله تعالى رسله إلا بهذه الصناعة، فأين هي من وعينا وأين نحن من إعداد أسبابها؟ لا شيء - بل لقد رأينا غيرنا استطاع في ميدان الفلاحة البدائي - أن يستثمر الأرضي وأن يخرج منها القناطير المقنطرة بينما لم نحس أن نأكل من الأرض التي بين أيدينا.

ثم يهتف شيخنا: لابد من جعل القرآن يتحول في حياتنا إلى طاقة متحركة، أما أن يجعل في المتاحف أو المكاتب للبركة أو نفتح المصحف ونقرأ منه آية أو آيات وينتهي الأمر فهذا لا يجوز.

ولاحظ مؤلفنا ملاحظة ذكية في أن آيات الأحكام كانت من وراء جهد الفقهاء في بعض القضايا وبعض الاجتهادات الفقهية - لكن بقية آيات القرآن أهملت - وبقية القرآن هي قصص.

والقصص القرآني فيها الكثير من العلاج - ترى لماذا أهمل التأليف الروائي وكان يمكن أن يكون سبباً في إنشاء أجيال واعية - كان يمكن أن يروي المسلم للأطفال محاولة الحبشة هدم الكعبة تبعاً لمؤامرة عالمية بين الإمبراطورية الرومانية في أوروبا وبين الحبشية في إفريقيا، وكيف أنها أرسلوا الفيل، وكيف أنهم نجحوا في احتلال الجنوب وبذلك يعرف الأطفال أشياء كثيرة عن علاقات دينية وعلاقات دولية ومعلومات تاريخية وكيف أن الله ينصر الإسلام بعد أن نبذل نحن جهدنا فينصرته.

انفصال العلم عن الحكم:

كانت دولة الخلافة الراشدة دولة تمثل الإسلام تمثيلاً هو الأقرب إلى عهد النبوة ثم حدث تحول كبير - فقد تحولت دولة الخلافة إلى ملك ولا شك أن الإسلام بقي في جملته، وأن الملوك الذين تبنوا الإسلام تبنوا منه المجموع من المعارف التي لا تصطدم بوجودهم ولا بأحوالهم الاقتصادية التي تحيط بهم أو يشكلونها لحراسة سلطتهم ومن خرج على هذا الخط إما تصوف وابتعد وانسحب من الميدان بالتصوف، وإما عاش يتحمل شيئا من الأذى ويقبي الكيان الإسلامي نظرياً، وقد تستبقيها القائمة لينجح في أداء هذا المعنى للاحتفاظ بالصورة النظرية للإسلام.

وضياع الحكم من قيم الإسلام ومن تأثيرات الإسلام على المجتمع له نتائج خطيرة، فلقد أعقب ضياع الحكم وانفصال العلم عن الحكم أو الثقافة عن السياسة انفصال آخر أشد خطورة على الأمة إذ إن العلم

الإسلامي انقسم بين فقهاء ومتصوفة - مع أن التربية التي أساسها العقيدة والأخلاق جزء من مقاصد القرآن الذي جاءت آياته لتدريب الأمة على العقيدة والأخلاق بطرق شتى، فوجد فقهاء يشتغلون بالمعاملات وبوظواهر العبادات ووجد مربون يشتغلون بالأخلاق والتربية - فكثير من هؤلاء فقدوا الناحية الروحية التي فيها حرارة وعاطفة "وهم الفقهاء"، وكثير من أولئك فقدوا الناحية العلمية التي فيها ضوابط وقانون - فنشأ عن ذلك زلزلة في الفكر الإسلامي ذلك أن انفصال الفقه عن التصوف أو انفصال التصوف عن الفقه أضاع الأمة.

اختلال في نواحٍ أخرى:

ثم وجد بعد ذلك في العلم الديني من عكف على القرآن دون بيان السنن أو عكف على السنن دون موازين القرآن فانضم إلى السنة حشد هائل من الموضعات الواهيات سببت بلبلة في الفكر الإسلامي.

وهناك شيء أخطر من هذا كله وهو أن علوم الحياة نبغ فيها نوابغ مثل جابر بن حيان في الكيمياء والحسن بن الهيثم في البصريات والخوارزمي في الرياضيات وغيرهم، لكن مع الأسف أن هؤلاء العلماء عاشوا على هامش المجتمع الإسلامي ولم يعيشوا في صميمه واعتبرت هذه الأشياء التي يشتغلون بها نوافل أو دون النوافل، مع أن المجتمع لا يقوم إلا بها فالغش الذي وقع في الثقافة الإسلامية وقع أولاً في الفقه فانحسر بعيداً

عن فقه العمل والعمال، وفقه الدولة انفصل وذهب وتوسع في العبادات بطريقة تكاد مضحكة وتعددت الصور، لأن الفقهاء يريدون ملء الفراغ.

والقصص القرآن انتقل من دراسة تاريخية لقيام الحضارات وانهيارها إلى دراسة ليس فيها حس بسنن الله الكونية إطلاقاً فوجدت أساطير ووجدت إسرائيليات وفي كل ذلك مجال واسع عند القصاصين.

والتفسير القرآني ابتعد أيضاً عن روح القرآن ومقاصده، فالمحاور القرآنية بوجه عام لم تجد من يتبناها ويمشي مع آفاقها لكي يحقق في الحياة - بل بالعكس الأسلوب الفقهي تغلب على أنواع البحث التي يجب أن تبتكر في الميادين الأخرى - فإن ما يحتاج إليه الطبيب غير ما يحتاج إلى الكيماوي - وما يحتاج إليه المهندس الزراعي غير ما يحتاج إليه الفلاح - فكل شيء له من طبيعته منهج يسير عليه، وامتداد هذه المناهج يكاد يكون في ثقافتنا صفراً.

الرؤية الموضعية والرؤية الموضوعية:

ثم يتحدث شيخنا عن النظرة الشمولية للرؤية القرآنية والعجز فيها الذي أدى إلى لون تقطيع الصورة وتمزيقها أو إلى التبغيض المورث للخزي الواقع في حياتنا اليوم، وهو ما تبين من قوله تعالى"{ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } "البقرة 85".

ونخشى أن تكون علل الأمة السابقة انتقلت إلينا – على الأقل من الناحية النظرية، لأننا ننظر نظرة جزئية ونأخذ بعض مقاصد الآية أو السورة ونترك ما وراءها للتبرك والتلاوة، ونخشى أن نكون قد وقعنا في هذا فعلاً – على الرغم من ادعائنا الإيمان بالقرآن كله، نعم نحن نعيش الآن مرحلة التبعيض والتفاريق. ترى كيف يمكن أن نرسم الطريق لتحقيق الرؤية الشاملة والنظرة الموضوعية لا الموضعية، وهل نعتقد أن الاقتصار على الجانب التشريعي وإهمال بقية المقاصد هو سقوط في هذا التبغيض.

ثم يقول: إن تعاليم الإسلام نسيج متشابك ملتحم بعضه مع بعض – تختلط فيه العقيدة مع العبادة مع الأخلاق مع أنواع المعاملات المختلفة.

إن النظرة الشاملة هي النظرة الصحيحة للدراسات القرآنية، والنظرة الجزئية عندما سادت الفكر الإسلامي نشأ عنها ما يشبه الجسم المشلول في بعض أطرافه أو في بعض أجهزته مع بقاء أجهزة أخري حية، إنه لا يستطيع أن يؤدي وظيفته ما دام الشلل أو الخطر جمد في بعض الأجهزة أو الأعضاء – ولابد من النظرة الشمولية للقرآن كله وهكذا انطلق القرآن من بدء نزوله حيث قال الله تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) } "العلق 1:5".

وبالقراءة أولاً وكون القراءة باسم الله وليست قراءة مجردة أو علماً للعمل وإنما هي قراءة باسم الله سبحانه وتعالى هدفها.. الله الذي خلق،

فقد ربط القراءة بتكوين الإنسان من علق قضية متباعدة الأطراف ثم التركيز على: "اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم"، الدخول في مسألة اقتصادية واجتماعية معا وهي طغيان الإنسان عندما يترف وينعم ويجيئه المال ويستكبر به، هذه المعاني المتباعدة في ظاهرها هي القرآن الذي يكون مائدة متماثلة في ما ذهب من حقائق الحياة عناصرها لمن يسمع وينفذ.. فلابد من هذا الشمول في النظر.

إن المسلمين اليوم يرفعون شعار: إن الإسلام شامل لجميع جوانب الحياة، لكنهم من الناحية العلمية واقعون في التجزئ، وفي تضخيم بعض الجوانب ونحن متهمون من بعض المفكريين الغربيين أن العقل العربي نفسه مولع بالنظرات الجزئية وعاجز عن النظرة الشمولية تري كيف يكون العلاج؟

العلاج يكون في التفسير الموضوعي بشقيه وهو مثلاً النبوة في القرآن - المال في القرآن، العدالة في القرآن تفسير موضوعي من هذا النوع يكون فيه معالجة لهذا الواقع ومنطلق ثقافي لرؤية قرآنية شاملة ومتوازنة - يضاف إلى ذلك أن النظرة الموضوعية للسورة كاملة ومعرفة الأغراض التي ندور حولها يمكن أن تسهم أيضاً في تكوين المنطق الثقافي للرؤية الشاملة - نحن أنفسنا روجنا لهذا الاتهام ووقعنا بسبب النظرة الجزئية مغالطات ومفارقات عجيبة، وهكذا يطالبنا شيخنا الجليل بأن نعود إلى القرآن الكريم ننشغل به ليكون محور حياتنا.

إن الأمة الإسلامية لابد أن تنزع كلها إلى الدستور الرصين والأركان الكبرى في هذا الدستور، لابد أن تبني وكذلك تفعل الأمم الأخرى، ويجب ألا يغيب عن أبصارنا أبداً الهدف الأساسي الذي لابد منه وهو "كتابنا".

كتابنا يكاد يضيع منا ونقرؤه مع كبار القارئين ونسمعه بتبلد، لأننا نريد أن نتلاقى على مجالس تأوهات وإعجاب بالأصوات وانتهى الأمر، أما أن ينطلق القرآن كتاباً محركاً للحضارات فقد غاب هذا كله، لأننا انشغلنا بغيره وهذا ما رفضه.